Issue No.3575 May-13-2013

في كتاب جديد عن التعددية والعيش المشترك والمواطنة في مدارس لبنان

الاب سليم دكاش يضع الأصبع على الجرح ويتساءل: هل يأتي خلاص الوطن من المدرسة؟

قد يكون الاب سليم دكاش من الخبراء التربويين القلائل في لبنان، وربما في العالم العربي ايضا، الذين عايشوا العملية التربوية على كل المستويات، نظريا وتطبيقيا، تخطيطا وادارة، بحيث تمكّن من الاحاطة، الى حد بعيد، بالكمّ الهائل من الصعوبات التي تعترض انسيابية العملية التربوية في بلد متعدّد الاديان والثقافات مثل لبنان.

غلاف الكتاب

وهذا واضح في كتابه الجديد: «التعددية، العيش المشترك والمواطنة في لبنان: هل يأتي الخلاص من المدرسة؟» المكتوب باللغة الفرنسية والصادر حديثا عن الجامعة اليسوعية في بيروت وعن دار «لارماتان» للنشر في باريس. والكتاب الذي يقع في ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير يقوم على دراسة مقارنة للغايات والاهداف والقيم المشتركة بين الجماعات في المدارس اللبنانية المسيحية والاسلامية والعلمانية. واقسامه الستة، بعد المدخل والمقدمة، تسعى الى الاحاطة، قدر المستطاع، بهذا الموضوع الشائك ليس فقط تربوياً، وانما كذلك اجتماعياً وسياسياً، على خلفية روحية ايمانية ينطلق منها كل من الجماعات في مدارسه ويسعى الى تطبيق معاييرها بكل التزام.

اشكالية العملية التربوية

والشائك في مقاربة مثل هذه الممارسات التربوية انها جميعا، تطرح نفسها على انها وطنية وانسانية. في حين يأخذ عليها الكثيرون ان هذه «الشعارات» عامة الى حد بعيد، وان ما ترمي اليه في الغالب هو غير ما تعلن عنه. ويذهب البعض الى حد القول بان الشرخ الاجتماعي والسياسي الذي يعاني منه لبنان منذ سنوات بعيدة، انما هو عائد، بشكل اساسي الى تلك العملية التربوية «التقسيمية» التي تتفنن في الدعوة الى الوحدة والمواطنة ولكنها، في الحقيقة، وربما من غير نية لدى بعض المؤسسات التربوية، لا تفعل الا تغذية التباعد بين المواطنين وتنمية فكرة الانتماء الى الطوائف بدلا من الانتماء الى الوطن.

والاب الدكتور سليم دكاش من خلال خبرته العميقة في هذا المجال التربوي، وكذلك من خلال ثقافته الواسعة في التراث الاسلامي، اضافة الى علومه اللاهوتية العميقة، هو من افضل مَنْ يستطيع مقاربة هذا الموضوع الشائك بموضوعية وبروح علمية، تشكلان الامل الذي يراهن عليه الحريصون على النسيج الوطني وليس على النسيج الطائفي.

والاب دكاش هو في طليعة هؤلاء الحريصين على المواطنة، لا بل انه من خلال، ممارساته جميعا ومؤلفاته المتعددة، يعتبر ابرز من حمل لواء هذه المواطنة.

فالاب البروفسور سليم دكاش، منذ اوائل تسعينات القرن الماضي، يتسلّم مسؤوليات تربوية ضخمة، بعد ان كان قد تمرّس في التعليم وفي الاطلاع على الفلسفة التربوية وعلى مناهج التعليم في لبنان والمنطقة وعدد من الدول الاوروبية.

ففي عزّ الحرب اللبنانية تسلّم مسؤولية رئاسة مدرسة «الجمهور»، وهي احدى أعرق المدارس في لبنان وخريجوها يتسلمون مواقع حساسة للغاية في قطاعات بالغة الاهمية، في لبنان والعالم. وقد تمكن الاب دكاش، بفضل رؤيته ونظرته التربوية الثاقبة من ان يجنب مدرسة سيدة الجمهور، ويلات الحرب، قدر المستطاع، وان يبقيها وفيّة لتاريخها، شعلة مضيئة في التربية اللبنانية، على الرغم من موقعها الجغرافي على اكثر من خط تماس.

خبرة تربوية واسعة

من خبرته في الادارة التربوية على مستوى المدارس، انتقل البروفسور دكاش الى الخبرة

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

Issue No.3575 May-13-2013

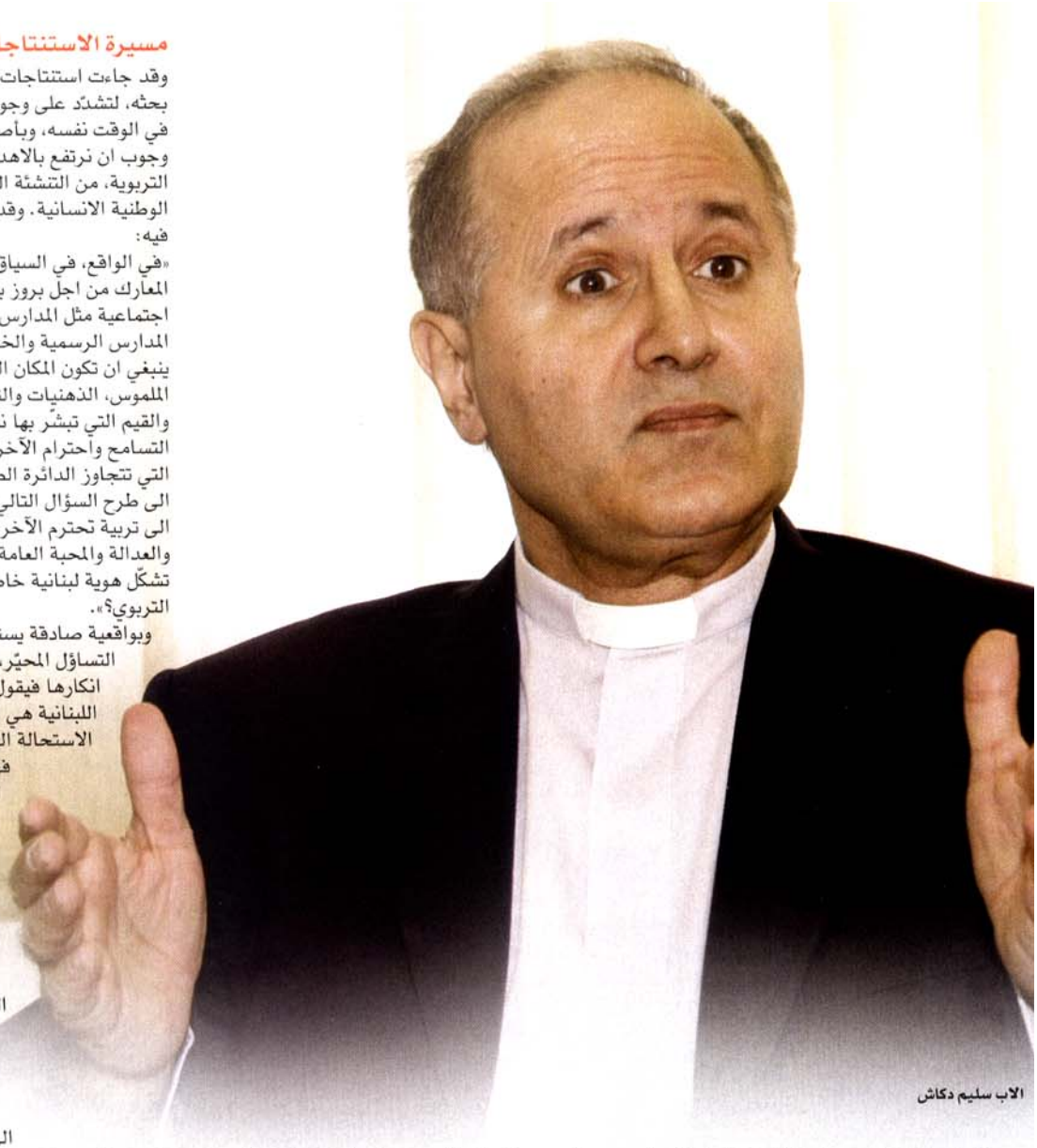

الاب سليم دكاش

الجامعية، اي الى حيث يترقى هؤلاء التلاميذ الذين نكون قد زرعنا في نفوسهم، مبدئيا، روح المواطنة، فيصبحون طلابا يتهيئون لدخول معترك الحياة. بداية، وبعد ١٨ سنة ادارة في مدرسة الجمهور انتقل الاب دكاش الى مركز عميد كلية العلوم الدينية في جامعة القديس يوسف، ثم الى ادارة معهد العلوم الشرقية في جامعة القديس يوسف، وهو معهد خرّج، عبر تاريخه العريق، نقادا وادباء ليس في لبنان فحسب، وانما في العالم العربي برمته ايضا. بعدها ومنذ صيف العام ٢٠١٢ اصبح الاب سليم دكاش رئيسا لجامعة القديس يوسف التي تعتبر واحدة من اعرق الجامعات في لبنان والمنطقة، وقد تخرج منها آلوف المميّزين في كل قطاعات المعرفة والعلوم.

من هذه الخلفية المكتنزة والمسيرة الحافلة بالعطاءات التربوية، يأتي كتاب الاب سليم دكاش الجديد المستند الى روح علمية والى منهجية مقارنة تكمن اهميتها في انها لا تسعى الى «تجميل» الواقع التربوي اللبناني وايهام القارىء بان كل الامور على ما يرام، وانما تضع الاصبع على الجرح وتسمي الاشياء باسمائها، لان لا امكانية فعلية لاي علاج حقيقي ودائم، اذا حافظنا على سياسة اخفاء الحقائق، ان لم نقل تزويرها. ويُعتبر الفصل الخامس من الكتاب، وهو الذي يقوم على تحليل مقارن للغايات والاهداف العامة والقيم الموجودة في معطيات موثقة. وبكل موضوعية يتطرق الاب الباحث الى بعض الاهداف العامة فيتعقبها في المدارس المسيحية ومن ثم في المدارس الاسلامية، مع كل ما في الممارسات من تعرّجات وفوارق في النظريات والتطبيقات، غالبا ما بين مدرسة واخرى، داخل المجموعة الواحدة، فما بالك بالفوارق بين المجموعتين موضوعي الدراسة.

مسيرة الاستنتاجات

وقد جاءت استنتاجات الاب دكاش، في خاتمة بحثه، لتشدّد على وجود تلك الفوارق، ولكن لتدعو في الوقت نفسه، وبأصرار علمي وطني، على وجوب ان نرتفع بالاهداف والغايات في العملية التربوية، من التنشئة الفئوية الطائفية، الى التربية الوطنية الانسانية. وقد جاء ذلك في مقطع يقول فيه:

«في الواقع، في السياق اللبناني ورغم عقود من المعارك من اجل بروز بنى تركّز الدولة، فان بنى اجتماعية مثل المدارس التابعة للطوائف وحتى المدارس الرسمية والخاصة غير الدينية (...) ينبغي ان تكون المكان الصالح لان نترجم في الواقع الملموس، الذهنيات والتصرفات والاهداف العامة والقيم التي تبشّر بها نصوص بعثات تدعو الى التسامح واحترام الآخر، الى العدالة والتضامن، التي تتجاوز الدائرة الطائفية الضيّقة. وهذا يؤدي الى طرح السؤال التالي: الى اي حد يمكن للدعوة الى تربية تحترم الآخر المختلف، ومن التسامح والعدالة والمحبة العامة وضرورة ان نعيش معا، ان تشكّل هوية لبنانية خاصة هي نتاج للتمازج التربوي؟».

وبواقعية صادقة يستنتج الاب دكاش، بعد هذا التساؤل المحيّر، الحقيقة التي لا يمكن انكارها فيقول: «صحيح ان المدرسة اللبنانية هي المثال الافضل على الاستحالة الوجودية لدمج المجموعات في بنية راقية هي الدولة، لكن هذه المدرسة لا يمكنها ان تبقى وان تكون في خدمة المجموعة التي انشأتها، اذا لم تعمد الى تربية التلميذ على الاحترام التام للقانون العام، واذا لم تلتزم بالسير فعلا في طريق التربية على القيم المشتركة بين المجموعات».

هكذا يعيد الاب الباحث، البروفسور سليم دكاش، الموضوع الى المربّع الاول. بمعنى ان المدرسة التي تعاني من الانشقاق الاجتماعي - السياسي، هي مسؤولة عن تضميد هذه الجراحات من اجل إعادة اللحمة بين المجموعات... والا فقدت تلك المدرسة معنى وجودها، لا بل قدرتها على الوجود في حد ذاته!

مقدمة المفكر الفرنسي

وهنا قد يكون من الضروري العودة الى المقدمة المعبّرة التي وضعها المفكر الفرنسي جان بول ريسفيبير لكتاب الاب دكاش، نظراً لاحاطتها الشاملة بالموضوع. يقول كاتب المقدمة:

في بادئ الامر نشير ان العمل الضخم الذي قام به الاب سليم دكاش مكتوب باتقان ويتبع المنهجية ذات المنحى النوعي. فالاقسام تتعاقب منطقيا وفقا لتحليل وملخص اجمالي تُعرض فيها اوجه التشابه والاختلاف بين التعليم «في المدارس المسيحية» والتعليم «في المدارس الاسلامية»، مما

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

Issue No.3575 May-13-2013

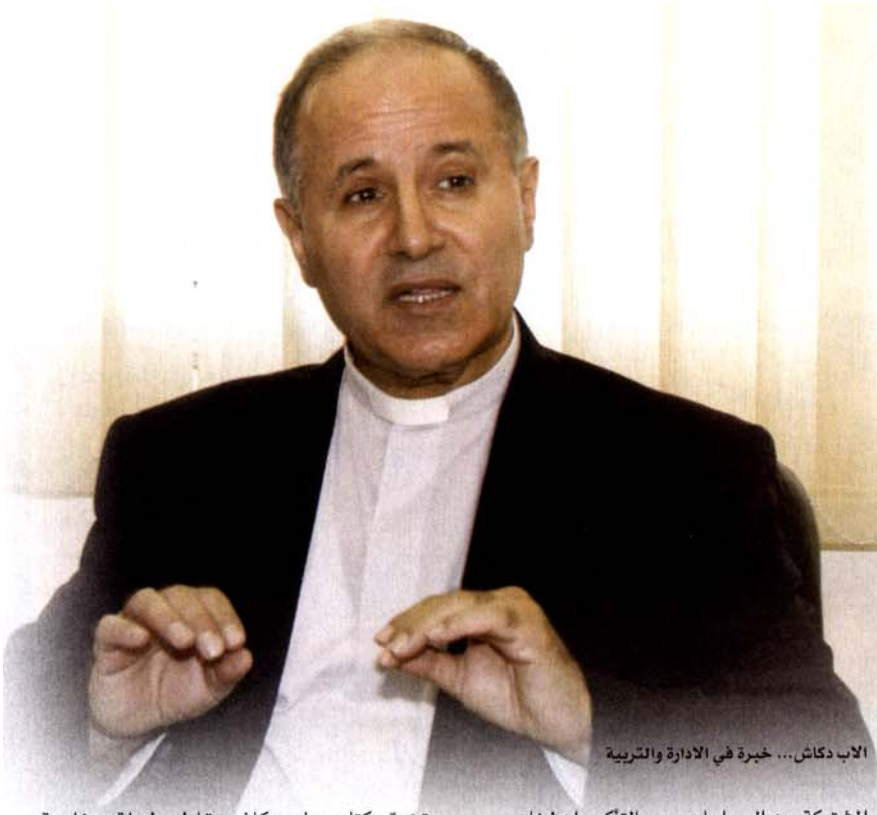

الاب دكاش... خبرة في الادارة والتربية

يؤدي الى مقترحات تشرح نقاط التلاقي التي تكمن وراء الخطابات (النصوص الرسمية والمواثيق والنصوص الدينية المرجعية والمشاريع التعليمية) والطرق المتنوعة للتعليم الرسمي وخاصة التعليم الخاص الديني والخاص غير الديني. الرهانات المطروحة كبيرة وتأخذ منحى تحد لانها تحاول بناء «الهوية» اللبنانية على أسس التعددية الدينية واللغوية والثقافية والجماعية. وتجدر الاشارة الى ان فكر الاب سليم دكاش يستند الى الحجة الدقيقة وخاصة الى التجربة وهي خير شاهد على مشاركة المؤلف الوجودية والفكرية والروحية في بحثه.

ينجم تصميم الكتاب عن المنهج الذي اتبعه المؤلف. بعدما ذكر الاب سليم دكاش ما يسميه «التمهيدات الخاصة بنظرية المعرفة» التي تعرض الهدف الفعال لدراسته، يؤكد ان الموضوع الذي يخضع للمساءلة مكون من ثلاثية الغايات والقيم والاهداف. في الواقع، يتمحور كلامه حول القيم لانها تُعتبر واسطة بين الغايات والاهداف – سواء كانت عامة او جزئية – وبين الفرد والجماعة، وبين الجماعات والامة. انها تفترض بحق ان المشروع التعليمي المصمم كهدف يحمل قيما ويسبق ويتحكم بالمشروع التربوي المصمم كبرنامج تعليمي. بقدر ما توضح القيم معنى الطرق التعليمية والاهداف التي تجسد هذه الطرق، تشمل هذه القيم ما يسمى عادة «رهانات» التعليم، وهو مصطلح يعني على وجه التحديد النقاط والمصادر التي تتقاطع عندها الغايات والقيم والاهداف. انطلاقا من سلسلة من المقابلات تتناول تفسير نصوص الرسالة التعليمية ومشاريع المؤسسة التربوية، يحلل المؤلف هذه القضايا ويقارنها بعضها ببعض عن طريق دراسة وظيفتها وادخالها حيز التنفيذ في المناهج المدرسية الرسمية وفي نصوص التعليم في المدارس المسيحية كما في نصوص رسالة التعليم في المدارس الاسلامية. فالاب سليم دكاش يجمع، بطريقة متوازنة، بين طريق التحليل والمنهج المقارن للمعطيات. هو يوضح ان «رهانات التحليل النوعي هي رهانات الطريقة الاستدلالية والدالة في اعادة صياغة وتفسير واستنباط نظري للشهادات والخبرات او الممارسات». هذا ويدرك المؤلف اهمية الذاتية، وهي «ذاتية عملية وغير تفضيلية تدخل في تفسير المعطيات».

لا يمكننا فهم استنتاجات الاب سليم دكاش الا اذا تجنبنا فصل التعليم عن التربية، واذا اخذنا كمقياس حق التعددية الثقافية والطائفية والمؤسساتية التي تكوّن لبنان اليوم، التعليم هو مساعدة التلامذة على تكوين انفسهم على جميع مستويات شخصيتهم، عن طريق التعلم الاكاديمي، ولكن بشرط ان نحدد لهم الغايات التي عليهم ان يستمروا في اعتمادها والتوجهات التي عليهم ان يتبعوها والخيارات التي يجب ان يتخذوها. ولكن الصعوبة تكمن في ان هذا العمل يتم في اماكن متنوعة تعبّر عن طلبات غالبا ما تكون تنافسية وتصدر عن اسر وجماعات تتنافس على قيم محددة. ولذلك، من اجل تخطّي هذا الوضع، من الضروري الحث على تشجيع القيم «المشتركة بين الجماعات»، مع التأكيد ان لبنان، نظرا لتاريخه وتعدديته المتنوعة، هو امة لا تتمتع بسمة الدولة. لهذا السبب يجب تواجد آلية سياسية وقانونية من التشاور والتعاقد تحل مكان غياب التمثيل في اطار الدولة الامة.

لا يدافع المؤلف كثيرا عن مفهوم مثالي للتعليم والذي من شأنه ان يتمتع بـ «رسالة» اولى الا وهي حل مشاكل التعايش الملحة التي تعيشها جماعات عدة في لبنان، فضلا عن مسائل اوسع تتناول الامة اللبنانية، مثل تربية المرأة والتنشئة المهنية ودعم الشعوب الاشد فقراً. يتوجب على المدرسة تربية الشخص على قيم المواطنة المشتركة التي تنطوي على احترام الاختلاف وتضمن وجود مجال لعمل تواصلي يتجاوز الانقسامات الطائفية ويتطلب تعلم التاريخ المشترك تماما، كما يتطلب تعلم واكتساب اللغات المتداولة في البلد. بالتأكيد، لا ينبغي ان يُمحى من المشاريع التعليمية المختلفة المثال الاعلى الذي تجسده المدرسة، ولكن يشير الاب سليم دكاش الى ان التلميذ حين يعي القيم المشتركة بين الجماعات، يعيش احيانا تجربة مؤلمة الا وهي تجربة الفجوة بين المبادئ التي يتعلمها والصراعات التي تجعل الجماعات تتنازع في ما بينها في الواقع اليومي، اذا اردنا ان تقوم المدرسة برسالتها بتوازن وفعالية لا ينبغي ان نطلب منها اكثر من اللازم، ولكن من الاهمية بمكان ان تعلم المدرسة التلميذ القيم الاخلاقية والدينية والقانونية والسياسية التي تمثل النظام المتسامي لقيم ذات مرجعية ديمقراطية.

وضوح في العرض ودقة في المعلومات والمعطيات والتحليل

يتضمّن كتاب سليم دكاش مقاطع طويلة وبخاصة عندما يستعرض، في نمط تحليلي مقارن، النصوص والمشاريع التأسيسية الخاصة بالمدارس المسيحية (الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانتية)، والمسلمة (السنيّة والشيعية) المختلفة. ولكن يمكننا ان نفهم هذا الاصرار اذا كانت القيم نفسها التي يبرزها المؤلف تظهر مكررة في كثير من الاحيان، لا يمكننا ان نتغاضى مع ذلك ان معناها يختلف وفقا للغايات والاهداف التي تضع هذه القيم حيز التنفيذ. اذا كان من الممكن اعتبارها «ثابتة»، مستعيدين بذلك مصطلح استخدمه دوبريل (Dupréel) فهي تندرج ضمن نظم عامة او فرعية، بحيث ان الافضلية المعطاة لقيمة معينة او التزام الصمت بشأن قيمة اخرى، يغيّر بالضرورة التفسير الذي يمكن ان نعطيه لنظام القيم او للنظام الفرعي لهذه القيم.

يمكن ان نعترض على تصور سارتر Sartre الذي يبدو ان المؤلف يتبناه في تأييد الحريات التي تتوصل الى الانسجام عن طريق الحد من بعضها البعض. فيمكن لهذه الرؤية الليبرالية والمثالية لحريات قادرة ان تحد نفسها ان تؤدي الى مفارقة المنافسة والصراع، اي عكس ما هو مطلوب، طالما ان لعبة هذه الحريات لا تُمارس في حدود تنتظم مسبقا على اساس عقد وطني.

الا ان بعض الملاحظات النقدية التي يمكن ان نوجهها لا تجعلنا نثير جدالا حول نوعية العمل من حيث وضوح العرض ودقة المعطيات والتحليل، وصحة الحكم واصالة الاستنتاجات. يمكننا ايضا ان نشير الى ان النموذج المقترح هو من الاهمية بحيث يتجاوز نطاق هذا البحث ويمكن احالته الى مجالات اخرى او تطبيقه في سياقات اخرى حيث تسود اشكال مماثلة من التعديات».■

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"